International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume1, Issue2, 2019

The Algerian Sahara in the works of the French orientalist Henri Duveyrier

Dr. Ahmed Bennani

University: Tamanghasset University Center – Algeria

Abstract: The researcher tries in this paper to find out the role of one of the European recitals in exploring the Algerian sahara and to identify the specificity of Algerian society, namely, Duvier, this explorer who traveled to Algeria and moved from the south to its north, east and west, so his inhabitants sat and merged with them, and attended Their councils, without their customs and traditions, collecting their heritage, registering their privacy, and monitoring their nature, their mountains, their mountains, their sands, their plants, their rituals, their religious methods, it is a study that stands for the role of this European explorer in monitoring the cultural richness and geographical diversity of the Algerian desert.

Keywords: Duvier, Works, Sahara, Algeria

Received: 2/3/2019
Revised: 9/4/2019
Accepted: 11/5/2019
Published online: 11/6/2019

* *Corresponding author:*
Email:
benani.ahmed@cu-tamanrasset.dz

Citation: Radif**.M.(2019). **The Algerian Sahara in the works of the French orientalist Henri Duveyrier
. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 1(2).
https://doi.org/10.65811/122

©2019 TheAuthor(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license. https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online **2706-8455**

الصحراء الجزائرية في أعمال المستشرق الفرنسي هنري دوفريه

الدكتور احمد بناني

الملخص: إن الباحث يحاول في هذه الورقة الوقوف على دور أحد المستكشفين الأوروبيين في استكشاف الصحراء الجزائرية والوقوف على خصوصية المجتمع الجزائري، وهو دوفريه هذا المستكشف الذي رحل إلى الجزائر وارتحل من جنوبها نحو شمالها وشرقها وغربها، فجالس سكانها. واندمج معهم، فحضر مجالسهم، ودون عاداتهم وتقاليدهم، وجمع تراثهم، وسجل خصوصياتهم، ورصد طبيعتهم جبالها رمالها فجاجها، ونباتاتها، وطقوسها، وطرقها الدينية.

الكلمات المفتاحية: دوفريه، أعمال، الصحراء، الجزائرية.

المقدمة

إن المستشرق الفرنسي هنري دوفيرييه من الجغرافيين الفرنسيين الذين استعانت بهم السلطات الفرنسية لاستكشاف الصحراء الجزائرية هذا الفضاء الذي كان يفتقد المستعمر لمعلومات دقيقة حوله حيث كان الاعتماد في كثير من الأحيان على السكان المحليين في معرفة هذ الصحراء وجغرافيتها ومنطقتها الواسعة فكان اللجوء إلى المتخصصين أبلغ الأثر في التوصل إلى حقيقة هذه الصحراء وثقافتها المتنوعة وعاداتها وتقاليدها الثرية وهو ما جسده هذا المستشرق في أعماله ومؤلفاته.

مؤلفات دوفرييه تمثل خلاصة رحلة استكشافية قادت (هنري دو فيرييه) إلى محطات مهمة في الجنوب الجزائري أهمها محطة وادي ميزاب، البيض، الأغواط، الأوراس، عمق الصحراء الكبرى، وقد أهلته تلك الرحلة للحصول على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الفرنسية وهو ما جعلنا نختار هذا المستشرق لنقف على الصورة التي نقلها عن الصحراء الجزائرية في كتبه وعن ملامح المجتمع الذي كان يستكشفه وبخاصة أنه اعتمد فيها كثيرا على السكان الأصليين في رصد تجليات الثقافة الدين العادات التاريخ في الصحراء الجزائرية، فكيف تتجلى صورة الصحراء الجزائرية في مؤلفات المستشرق الفرنسي هنري دوفرييه؟

هنري دفيرييه المستكشف الجغرافي

ولد هنري دفيرييه في ٢٨فيفري ١٨٤٠م بباريس والده شال دفيرييه (charles Duveyrier) (١٨٠٣-١٨٦٦) كان عضوا فاعلا في الحركة السانسيمونية (Saint-simoniens) وهي حركة تعود الى كلود (هنري دوروي) كونت سان سيمون (Saint simon) وهو السياسي الاقتصادي والاجتماعي الذي كان همه العمل على تغيير المجتمع النخبوي .(شخوم،٢٠١٢، ص٣١٥) ، فهو عمود من أعمدة الحركة السانسيمونية والتي كانت تسعى إلى إعادة بناء المجتمعات وفق رؤى النخبة وتغيير قناعاتها، وهو ما من شأنه إحداث نقلة نوعية في الأفكار والطروحات السائدة في المجتمع، وتحطيم بعض المسلمات.

تلقى (هنري دفيرييه) تعليمه الأول في المؤسسات الابتدائية الخاصة في فوجيرارد(vaugirard) بمقاطعة السين، ثم انتقل إلى ألمانيا حيث درس في جامعة ليبزنغleipzig)) حيث تعلم اللغة العربية على يد المستشرق (هاينريخلبرخت فلايشر) (١٨٠١-١٨٨٨) HeinrichLeberecht Fleischer ثم عاد إلى فرنسا حيث زاد في تعميق دراسته للغة العربية ، ويظهر أنه استفاد من سيرة أبيه الذي كان يعد من متميزي عصره في الأدب الفرنسي (Vapeau,1870 ,p٦١٤) ، فهو من مرتادي أفضل منطقة عرفت بالتطور الكبير للدرس الانثربولوجي والتاريخي والمجتمعي، وبخاصة اشتهار منطقة ليبزيج بالدرس اللساني المقارن وكذلك الدرس اللساني للغات الشرقية، وهناك تفرغ لدراسة اللغة العربية على يد المستشرقين، وبذلك حاز سبقا في تعلم اللغة العربية وهي مفتاح الولوج إلى المجتمعات العربية وثقافتها، ومفتاح الاطلاع على التراث العربي واستكناه دره، وتوجيهه بحسب منطلقاته وتكوينه الفكري .

قبل أن يبلغ دوفيرييه سن العشرين حتى بدا عمله الميداني الأول اكتشاف الجزائر بداية من مدينة الأغواط ثم توجه نحو الجنوب الذي كان يسمى ببلاد السودان في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ، فتوغل في الجنوب بمساعدة التوارق وهذه الرحلة التى قام بها جعلته يحظي بتكريم الجغرافيين الفرنسيين وذلك من خلال تتويجه بالميدالية الذهبية من قبل الجمعية الجغرافية الفرنسية وهو ما جعله يحتل مرتبة مرموقة في هذه الجمعية فأصبح من أهم أمنائها السريين (Narcisse,1989 ,p٢٢٣) ، كانت عناية دوفرييه بالمجتمع الجزائري كبيرة، فلم يبلغ العشرين حتى سبر أغوار أهم المدن الجزائري وشرع في اكتشاف خصوصياتها، وهو ما يتجلى في وقوفه على الجنوب الجزائري بدءا بمنطقة الأغواط ثم الجنوب الجزائري عموما، وهو ما جعله يقف على حقائق تاريخية واجتماعية كبيرة حيث اعتبر الانجاز الذي قام به في استكناه خصوصية تلك المناطق عملا جبارا استحق عليه تكريم جمعية الجغرافيين الفرنسيين الذين كانوا يجتمعون تحت لواء الجمعية الجغرافية الفرنسية فحاز التكريم الذهبي وأصبح مقدما لدى هؤلاء وأمينا من أمناء سرهم.

رحلة دفيرييه إلى الجنوب غيرت مجرى حياته وجعلته متعلقا بالرحلات ، فبعد أن كانت المهمة الموكلة إليه في إطار الجمعية الجغرافية هي إيجاد الروابط التجارية بين السودان (الصحراء الكبرى) والشمال الجزائري ،ظهر تأثره النوعي بالطريقة السنوسية التي تنتسب إلى محمد بنعلى السنوسي (١٢٧٥-١٢٠٦هـ/١٧٨٧-١٨٥٩ م)، فلم يتوقف عن الرحلات ، فانتقل إلى شط الجريد سنة ١٨٧٤، ورحلات أخرى قادته إلى المغرب الأقصى وليبيا في السنوات الاخيرة من حياته وهكذا توفي في ٢٥ أفريل ١٨٩٢م (شخوم،٢٠١٢،ص٣١٥-٣١٦) ، فدوفرييه سبر أغوار الجنوب الجزائري في بحثه عن العلائق بين الصحراء الكبرى والشمال الجزائري اجتماعيا وتاريخيا واقتصاديا، وهو ما جعله يتأثر بخصوصية المجتمع في الصحراء الكبرى حيث كانت تنتشر السنوسية وبخاصة في ليبيا، وهو ما جعله يوسع نطاق رحلاته لتشمل جميع مناطق الصحراء الكبرى وشمال إفريقيا باحثا عن الخصوصية ونقاط التلاقي التاريخية والثقافية والتجارية.

فيعتبر هنري دوفيرييه من أهم الشخصيات التي تقاطع معها مذهب السانسيمونية و التصوف عبر الطريقة السنوسية ، فعمل جاهدا على فتح بعض زواياها في أقصى بلاد السودان ، كما أن التجانيين قدموا له دعما ملحوظا في رحلته وهو ما يترجم الحقيقة التي تؤكد بأن التصوف وأصوله التاريخية يعود في نشأته إلى تأثر بعض المسلمين بالنسك الذي كان في الأديان التي سبقت المسلمين ، ويذكر بعض الباحثيين تأثره بالحركة الماسونية وإن لم تكن عضويته ظاهرة للعيان ومع ذلك لا يمكن فصل مهمته العلمية والشخصية التي تمثل قناعاته الدينية والفكرية عن ظاهرة الاستعمارية ،(شخوم،٢٠١٢،ص٣١٦) فقد أسهم دوفرييه في انتشار الطرقية والتصوف على ما ارتبط به التصوف من تأويلات تعلقت بصلته بنسك وعقائد أمم مختلفة، بل وذهب البعض إلى ربط بعض نسكه بالماسونية التي كان يمثلها دوفرييه بشكل من الأشكال فاستطاع التماهي مع المجتمعات التي استكشفها وحاول ترويج التصوف والطرقية وفق ما يخدم أهدافه وغاياته التي لا يمكن فصلها عن الاستعمار وتمهيد الطريق لتسليم مفاتيح الفكر والثقافة والتاريخ والعقائد لأهدافه الخفية وطوحاته في اختراق المجتمعات وخصوصيتها.

مؤلفات هنري دفيرييه المستكشفة للصحراء الجزائرية :

كتب دفيرييه عدة مؤلفات في مجالات مختلفة منها ما يتناول الجانب الجغرافي والاستكشافي وأخرى تتناول الرحلات يمكن إجمالها في المؤلفات الآتية : (Narcisse,1889,p٢٣٣)

رحلة في بلاد الميزاب Voyage dans le pays de Beni Mzabالذي ظهر في ١٨٥٩.

في هذا الكتاب وقف على عادات ساكنة وادي ميزاب، ورصد مظاهر مجتمعهم ، وخصائص لغتهم، ووقف على تفرد هذا المجتمع في جوانب كثيرة من بينها النظام الذي يحكمه، والمجلس الذي يحتكم إليه المجتمع.

دوفرييه نزوله إلى مدينة الجزائر اتجه صوب غرداية ومنها سافر إلى القليعة ولم تكن قد وطئتها قدم أوروبي فقام بعمليات فلكية في ظروف قاسية رفض السكان مده بما يحتاج إليه من المؤن والزاد قرر أن يسلك طريق العودة إلى الشمال، وفي سياق إقامته في القليعة ورحيله عنها يقول بأن رحلته تبدو في الوهلة الأولى هزيمة حيث طرد من المدينة واضطر تحت التهديد إلى الخروج منها ليلا في ظروف صعبة لكنه اعتبرها ناجحة حيث يقول بأنه أقام بهل ليلتين كالسجين لكن ذلك لم يضايقه،ة فيعتقد بأن الطريق انفتحت أمامه وهو الانطباع الذي حمله(العربي ، ١٩٨٣،ص٨٤)، فهو يؤكد بأنه لم يلق القبول من ساكنة غرداية ومع ذلك أصر على اختراق المجتمع هناك بل الصد الذي واجهه جعله يتشبث بضرورة استكشاف خصوصية المنطقة.

رسائل مجموعة في الآثار الرومانية بمنطقة الأوراس Letters sur les inscriptions recueilles dans lèAures في سنة ١٨٦١م .

في هذا الكتاب رصد صلة منطقة الأوراس بتاريخها مبرزا جوانب الأصالة الرومانية في الآثار التي تقفى أثرها وخصوصياتها.

استكشاف الصحراء – توارق الشمال Exploration de sahara –les touareg de nord الذي ألف سنة ١٨٦٤

في هذا الكتاب تعمق في الحديث عن خصوصية المجتمع التارقي وتنوع عاداته وتقاليده، وتميز فنونه، لغته عن سائر اللغات، وخصوصية الطقوس التي تميز مناسبات المجتمع التارقي.

فدوفرييه تعرف على أحد التوارق في واحة الأغواط ولم تلبث أن تحولت المعرفة إلى صداقة غذتها في نفسه تلك القصص والأساطير التي سمعها في بلده عن نبل هذا الشعب وشجاعته وصرامته، وقد صادف أن كان الطوارقي يستعد لسفر العودة إلى بلده فوجه له الدعوة لزيارة الطوارق (العربي ، ١٩٨٣،ص٨٣)، فقد تعرف في رحلته إلى الأغواط على من زاد شغفه بمنطقة التوارق ووجهت له دعوة لزيارتها وهو ما حققه بالفعل فيما بعد.

كما أن دوفرييه قام بإعداد رحلته الاستكشافية لتكتسي طابعا علميا فأحاطها بكثير من العناية والتدقيق، فاطلع على عديد الكتب، واستشار كثيرا من المتخصصين الأوروبيين في شؤون الصحراء، فتعلم الأدوات وطرق تحديد المواقع طولا وعرضا، وهو أمر حيوي، في كل محاولة للقيام باستكشاف علمي، فزار عديد المتاحف، وتمكن من اتمام معلومات عن الجيولوجيا وعلم الطبيعة، كما طلب من المستشرق الناقد رونان مده بمعلومات هم الإيثنولوجيا والسلالات الصحراوية(العربي ، ١٩٨٣،ص٨٤)، فقد كان عازما على رحلة استكشافية علمية تسبر أغوار المجتمع الجزائري بمختلف تنوعاته، فاستشار وجمع معلومات تذلل له طرق البحث في خصوصية المجتمع الجزائري بمختلف تمثلاته.

وفي غضون رحلته إلى الطوارق قام بأبحاث مستفيضة في كل مكان مر به عن السكان ولتحديد موقعه الجغرافي والتعرف على النباتات، والمعادن التي تصادفه في طريقه، وباختصار، فقد قام بمفرده بنفس المجهود الذي توفره عادة بعثة علمية، فاتجه إلى طوارق الشمال الذين يسكنون جبال التاسيلي(آجار) وللوصول إلى هناك سلك طريق غدامس، كما يؤكد بأنه تلقى مساعدة كبيرة من أمينوكال (ايخنوكن) والشيخ عثمان(العربي ، ١٩٨٣،ص٨٥)، فدوفرييه قاد برحلة استكشافية لمجتمع التوارق ساعده فيها أعيان المجتمع التارقي وزعماؤه، فتتبع النباتات والمعادن ومواقعها، وكذلك المنطقة الجغرافية الصحراوية وخصوصيتها.

كما أن دوفرييه لما وصل إلى غدامس رفقة الشيخ عثمان فقد كان ينوي أن يتخذ من غات المرحلة الثانية ، ولكن الحالة المضطربة التي كانت تسود هذه المدينة جعلته يعدل عنها ويسلك الطريق التي تمتد إلى طرابلس حيث تقدم إلى الوالي التركي يرجوه فيه أن يصدر أمرا عاما إلى جميع موظفي الولاية في المناطق الصحراوية بأن يتولوا حمايته ويمنحوه الضيافة(العربي ، ١٩٨٣،ص٨٥)، فقد حظي بالرعاية والحماية وهو ما مكنه من استكشاف الصحراء دون خوف، فاستعان بساكنة الصحراء فمهدوا له الطريق ويسروا له المهمة.

تاريخ الاستكشاف في الجنوب والشمال الغربي للبيض (جرفيل) (Historique des exploration de sud et de nord-ouest de Gèryville) سنة ١٨٧٢.

هذا الكتاب رحلة لسبر الصحراء الجزائرية والوقوف على عادات المجتمع في عمق الصحراء الجزائرية، مبينا خصوصية اللباس والعادات بمنطقة البيض.

ليوينغ ستون واكتشافاته في الجريد التونسي (بحيرات إفريقية الشرقية) (Exploration dans la règion des lacs de Lwingstone et ces l'Afrique orientale) ألف سنة ١٨٧٣م.

في هذا الكتاب رصد لجانب من جوانب شمال أفريقيا وخصوصية المجتمعات المغاربية المتاخمة لبحيرات إفريقيا الشرقية من خلال الوقوف على المظاهر الاجتماعية والثقافية، والعادات والتقاليد.

بحر داخلي في الجزائر (Une mer interieur en Algerie) ظهر في سنة ١٨٧٤م.

هذا الكتاب يرصد الكاتب عمق خصوصيات المجتمع الجزائري وتنوع عاداته وتقاليده متوسعا في الخصوصة الجغرافية للجزائر وارتباط التنوع الثقافي واللغوي بها.

رحلة في الصحراء من طرف نوربيرد ونودوبيري (Dourneaux- Dupéré-unvoyage aux sahara par norbert) ظهرة سنة ١٨٧٤م.

رصد لخصوصية الصحراء الجزائرية ووقوف على خصوصية المجتمع الجزائري في الصحراء، وتنوع عاداته وتقاليده.

رسائل أثناء المهمة في شط الجريد التونسي (Lettres Durant la mission aux chotts) في سنة ١٨٧٥م.

التقرير الأولى في المهمة نحو شطوط الصحراء وقسنطينة (premier raport sur la mission des chotts de sahara et de contantine) في ١٨٧٥م.

جبال الأوراس (Les montagne de Laures) ظهر في ١٨٧٦م .

مسار الرحلة من متليلي إلى حاسي برقاوي ومن القليعة إلى متليلي (ltinéraire de Methlelili à HassiBergkaoui et d'El Golèa à Methlelili) ظهر في ١٨٧٦م.

مشاركة لا رغو فيكتور (١٨٤٠-١٨٩٧) في استكشاف الأهقار (La souscription Largeau au Ahagar) في سنة ١٨٧٦م

وهو كتاب يرصد خصوصية المجتمع بالأهقار وتنوع العادات والتقاليد والفنون، وتنوع اللهجات التارقية، وخصوصية هذه اللغة.

تطور الجغرافيا في الجزائر منذ ١٨٦٨إلى ١٨٧١(Les progrès de la gèographie en Algèrie depuis l'année 1868 jusqu'àl'année ١٨٧١) في ١٨٧٦

الأخوية الإسلامية لسيدي محمد بن على السنوسي توزيعها الجغرافي (La confrérie musulmane de sidi mouhamed ben ali el senousi , son domaine gèographique)في ١٨٨٤م .

إن معظم المؤلفات تؤكد بأن دوفريه لم يكن إنسانا عاديا، فقد كان في مهمة علمية وبحثية بأهداف غير معلنة ومع ذلك خص المجتمع الجزائري بدراسة معمقة فحضيت منطقة ميزاب بدراسة للعادات والتقاليد واللغة ، وتركيبة المجتمع وثقافته في مؤلفه رحلة في بلاد الميزاب، وكذلك خص منطقة الأوراس بدراسة مستفيضة تناول فيها التاريخ الروماني في منطقة الأوراس باحثا عن صلة خصوصية المجتمع بتاريخه الروماني عن طريق رسائل تناولت قضايا متفرقة، ليعمق الدراسة بتخصيص مؤلف للمجتمع الجزائري بالجنوب الجزائري منطقة التوارق بالتحديد وذلك في مؤلف موسوم استكشاف الصحراء توارق الشمال سبر فيها أغوار خصوصية المجتمع عند التوارق وكذلك العادات وتمثلات التاريخ والإرث الثري الذي يعرف به المجتمع التارقي لغة وثقافة وفكرا، كما خص منطقة البيض بدراسة معمق تناول فيها تاريخ الاستكشاف في الجنوب والشمال الغربي للبيض متناولا بتوسع خصوصية المجتمع وتطوراته عبر الحقب الزمنية وكذلك مكوناته وتشكلات الثقافة فيه، وأهم مؤلف له هو الأخوية الإسلامية لسيدي محمد بن على السنوسي توزيعها الجغرافي حيث ترجم فيه اهتمامه الكبير بالطرقية وبخاصة الدعم الذي وجده من قبل التيجانية، فكتب عن السنوسية وعن توزعها الجغرافي، وله مؤلفات كثيرة تناول فيها الجنوب الجزائري تناولا عميقا مفردا لكل حقل دراسات وأبحاث دقيقة ولا تخلوا تلك الأبحاث من القيم العلمية إضافة إلى غايات أخرى تخدم أهداف المستعمر لسبر أغوار المجتمع الجزائري ومختلف مناطقه، وتعدد أعراقه وتنوع ثقافته وثراء لغته.

3- كتاب هنري دفيريه استكشاف الصحراء – توارق الشمال (Exploration de sahara-les touareg de noed):

لقد ألف هنري دوفيرييه كتابه استكشاف الصحراء توارق الشمال (Exploration de sahara-les touareg denord) سنة ١٨٦٤ حيث تناول دوفيريه في هذا المؤلف التكوين الجغرافي الطبيعي للمنطقة وغيرها ، كما تحدث عن الجانب البشري عن توزيع السكان وانتشارهم الجغرافي مع اعتماده الكبير على كتب الرومان في الحديث عن هذه المنطقة ،(٢٨٥Devreyuer,1864,p) ففيه عرج دوفرييه على التكوين الجغرافي الطبيعي للمنطقة، وتحدث عن الجانب البشري وتوزيع السكان من خلال استناده إلى كتب الرومان في نقل أخبار المنطقة وسرد تاريخها ونقل خصوصيتها.

فالصحراء منطقة وجدت بها الرسوم والصور المنقوشة بطريقة عجيبة، وقد استخدمت في النقش آلات دقيقة لهذا الغرض، وهي تصور لنا الحياة اليومية التي كان يعيشها السكان، برسومات رائعة الأشكال محكمة التخطيط، وتتجلى بألوان زاهية تم تركيبها من مواد كيمياوية ويرجع تاريخ هذا النحت إلى ٩٠٠ سنة (ق.م)(بوشوارب، ١٩٩٥، ص٦١)، وهو تأكيد على قدم هذه المنطقة وعراقة تاريخها الضارب في القدم، فتعددت الرسومات على واجهة الكهوف، والصخور، لتحمل للمستقبل أخبار الماضي وحضارته وتنوع ثقافته.

إن كتاب دوفرييه يعتبر دراسة شاملة لمنطقة التوارق الشمالية، وتتضمن الجغرافيا وطبقات الأرض الأحوال الجوية وموارد المياه، كما تشمل ملاحظات تتعلق بالحيوانات والنباتات وأحوال المعيشة، والطقوس الدينية واخلاق التوارق، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأصلهم، وكل ذلك بتفصيل ودقة متناهية (العربي، ١٩٨٣،ص٨٧)، فهو دراسة تناولت الجغرافيا ورصد التنوع النباتي ، والعادات والتقاليد، والوقوف بدقة على خصوصيات المجتمع التارقي ومناطق تواجده.

فدوفرييه كان يشاهد ويتابع، ويسجل، فكانت المعلومات التي يقدمها يستقيها من الكتب القديمة، ومن روايات السكان، فهي تمثل مشاهداته الشخصية، فهي دراسة لا تقتصر على توارق الشمال بل تتناول توارق الجنوب (العربي، ١٩٨٣،ص٨٧)، فلم يترك مصدرا إلا وعاد إليه، ولم يترك راوية إلا عاد إليه، فهو يأخذ من كل شحص يمكنه أن يقدم معلومة تخص جانبا من جوانب منطقة الصحراء وتشبث التارقي بها.

وصف دوفرييه للتارقي ساكن الصحراء

يشير هنري دفيرييه إلى أن التوارق يتميزون بطول أجسامهم بعضهم يبدو وكأنهم عمالقة نحفاء حادون عصبيون عضلاتهم كأنها نابض حديدي،بيض البشرة أطفالا ، غير أن الشمس تغير ألوانهم مع الوقت، وعند العبيد هي امتزاج بين اللون الاسود والابيض ، وجوههم تشبه الصنف القوقازي، الوجه بيضاوي طويل عند البعض ودائري عند البعض الاخر عريضي الجباه ، سود العيون صغار الأنف أفواههم متوسطة وشفاههم دقيقة ، لحاهم سوداء غير أنها نادرة اسنانهم بيضاء وجميلة قليل منهم ذو العيون الزرقاء(٣٨١Devreyuer,1864,p-٣٨٢) ، فهو ينقل بشكل دقيق خصوصية المجتمع التارقي فيشرع في وصف الانسان التارقي وصفا ينم على أن الرجل جالسهم وعايشهم، فأدرك خصوصياتهم الدقيقة، وامتزاجها حيث وقف على مكونات هذا المجتمع بأعراقه وطبقاته، مقدما وصفا دقيقا لألوانهم وأجسادهم، ووجوههم، وطولهم.

المجتمع الأهقار بأعين دوفرييه

يذهب هنري ديفيريه إلى ان المجتمع التارقي مجتمع تغلب عليه الطريقة التيجانية حيث يقول أغلب مريدي الزاوية التيجانية من الطوارق حيث أسس أحد زعمائهم الشيخ عثمان الذي اشتهر بزيارته لباريس زاوية على سفح هضبة التاسيلي وأسماها تماسين أي تيماسين الصغيرة ولها فروع في وادي سوف حيث يملك زاوية بقمار تعتبر إقامة صيفية لرؤساء قبيلة تامهالت وعائلاتهم ، وله إمتدادات إلى غاية تونس غير أن مريديه أقلية بليبيا(٢٥٩Devreyuer,1864,p) ، فالمجتمع بمنطقة الأهقار مجتمع متصوف حسب دوفرييه، فهو مجتمع تشرب الطريقة التجانية حيث ذهب إلى أن غالبية المجتمع التارقي ينتمي إلى الطريقة التجانية، فيبين استكشافه الدقيق لخصوصية المجتمع التارقي مذكرا بأن أحد زعماء التوارق اسمه الشيخ عثمان أسس زاوية على

سفح هضبة التاسيلي، أسماها تماسين أي تيماسين الصغيرة وهو شيخ عرف بزياراته الكثير إلى باريس كما ينقل دوفرييه وهو ما مهد له الطريق لمعرفة هذه الطريقة وتشعباتها ليقف على امتدادها إلى وادي سوف حيث تعتبر منتجعا صيفيا لقبيلة تامهالت وعائلاتهم، وهي طريقة تمتد إلى الصحراء الكبرى عموما وتخترق شمالها وجنوبها، فدوفرييه يؤكد تحكمه في تاريخ المنطقة ويرسخ قناعته بأن المجتمع التارقي مجتمع صرفي طرقي تجاني.

والتيجانية هي طريقة صوفية يؤمن أصحابها بجملة من الأفكار والمعتقدات الصوفية ويزيدون عليها الاعتقاد بإمكانية مقابلة النبي مادية واللقاء به لقاء حسيا في هذه الدنيا وأن النبي قد خصهم بالصلاة (الفاتح لما أغلق) التي تحتل لديهم مكانة عظيمة ،ومؤسس التيجانية هو أبو العباس أحمد بن محمد المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني ، فلكل طريقة أورادها ونسكها حيث تبين للمريدين الطريق الذ يسلكونه متأسين بمنهاجها وتوجيهات مشايخها.

تتميز التيجانية بمعتقدات من ذلك إيمان مريديها بوحدة الوجود والفناء الذي يطلقون عليه اسم وحدة الشهود ، ويقسمون الغيب إلى قسمين غيب مطلق استأثر الله بعلمه وغيب مقيد وهو ما غاب عن بعض المخلوقين دون بعض ، ويقول زعيم الطريقة أحمد التيجاني أنه التقى النبي لقاء حسيا ماديا وأنه قد كلمه مشافهة وتعلم منه الصلاة الفاتح لما أغلق وأكد بأنه أخبره بأن المرة الواحدة من هذه الصلاة تعدل قراءة القران ست مرات ، فمعظم الطرق تتوشح باعتقادات ومكاشفات لمشايخها ومجالستهم للنبي عليه السلام في رؤاهم، فينقلون بأن تلك الرؤى بها توجيهات رسمت معالم الطريقة، وبينت أورادها، ومنهاجها.

ركز هنري دفيرييه على الطريقة التيجانية وارتباطها بالمجتمع الأهقاري مبرزا بعض الفتاوى التي ساقها أن الاحتلال الفرنسي عند زعماء هذه الطريقة ومريديها أمر قدري ، فنقل تأثرهم بموت السلطان العثماني عبد المجيد الأول (١٨٢٣-١٨٦١) فاعتبروا موته بمثابة انتصار فرنسا عليه وتمكنها وغلبتها ، ويذكر بالعداوة التي كانت بين تجانية تماسين والأتراك ، والتي من أسبابها التقارب الفرنسي التيجاني ، وكيف أن التيجانية وجدوا أنفسهم بفعل تراكم الأحداث أكثر قربا من الفرنسين ،(شخوم، ٢٠١٢،ص٣٢٠) من خلال سرد دوفرييه لهذه الحادثة يغتنم أحداث التاريخ ليجعلها تخدم أهداف المستعمر مذكرا بالعداوة التي كانت بين الطريقة التجانية والأتراك ليعمق صلة فرنسا بهم، ويوجههم بأن نصر فرنسا نصرهم، وفكاك لهم من التسلط العثماني، وهو ما جعله يرسخ عقيدة القضاء والقدر التي تسلم بها التجانية وتدخل في ذلك وضعية المستعمر وتربطه بها.

يؤكد دوفيرييه بأن المسألة التي كانت بين التجانية والفرنسيين وجعلت زاوية الطريقة التيجانية تيماسين من أكثر الزوايا أبهة وعنى حيث شبهها بدار سلطان تونس أو مصر ،وهذا يدل على مدى تمكن التجانيين المادي واستغلالهم لفرصة سيطرة الفرنسيين وقضائهم على عدوهم القديم (العثمانيين) وهو ما جعل دوفيرييه يبني علاقة جيدة مع شيخها سيدي محمد العيد ولقبه بقلب الأخ كما يذكر(Devreyier,1864,p٣٠٩) ، إنها الأهداف الخفية، ومربط الفرس في كل الدراسات والأبحاث التي كان يجريها دوفرييه إن أبحاثه ليست عبثا، فاستكشافه واعتناقه الطرقية واختراقه الطريقة التيجانية والسنوسية كان من أجل هذه اللحظة التي تستثمر في عداوة التيجانيين للأتراك ونسج فرنسا لخيوط دقيقة مع هذه الطريقة دون علم أصحابها باسم التاريخ والتعاون ونشر الصوفية، لكن أهدافها أن يستسلم المجتمع بعد أن تم إيهام زعمائها بأن فرنسا هي المنجي من تسلط الأتراك، فهذا هو سبيل العلم والتاريخ وتوجيهه لأغراض خاصة.

تبقى نظرة المستكشفين الفرنسيين للتصوف في مجتمع الأهقار شبيها بالطقوس النصرانية ففي حديث متعمق ومتوسع من أحد المستكشفين الفرنسيين وهو فرنسوا برنارد عن التصوف في مجتمع الهقار في كتابه (Deux MissionFrançaises chez les Touareg) ينظر إلى هذا النوع من التدين كنظرته إلى المظاهر الدينية النصرانية بل يذهب إلى تشبيه مقدم الصوفية بالكاهن فالزوايا تقترب في فهم هؤلاء من أديرة النصارى(Bernard,1896,p١٤) ، فيحاول المستشرقون التأكيد على أن التصوف شبيه بالطقوس النصرانية، وما تشبيههم لمقدم الصوفية بالكاهن لتقريب الأديرة من الزوايا الطرقية، كل هذا من

خلال دراسات وأبحاث تغير في المفاهيم وتقض أركان العقائد الصحيحة لامتلاك مفاتيح التأثير في المجتمعات، ومفاتيح تفكيكها وإثارة النعرات والخلافات بين مكوناتها.

دوفرييه عندما عاد إلى فرنسا استكمل أبحاثه ودراساته، فوضع كتابا كبيرا عن الطرق الدينية الاسلامية كما نشر عددا من الوثائق عن جغرافية أفريقيا كانت أساسا لكثير من الدراسات التي ظهرت بعده (العربي، ١٩٨٣،ص٨٨)، فدوفرييه استغرق في استكشاف الطرقية بالجزائر، وطقوسها، فتوج أبحاثه بدراسة عميقة عن نشأتها معتقداتها، أبعادها شيوخها، وارتباط بعض طقوسها ببعض الطقوس النصرانية حسب رأيه، وهو ما جعله مرجعا مهما في الطرقية في شمال إفريقيا.

اللغة التارقية في رأي دوفرييه

يشير ديفيرييه إلى أن اللغة التارقية لسان المجتمع المتميز بعاداته وتقاليده المتفرد بلغته التي تكتب بحروف تسمى التيفيناغ أو التماشق التي استطاع الانسان التارقي الحفاظ عليها عبرتعاقب الدهور والأزمان بفضل الدور الذي تقوم به المرأة التارقية في تعليم أولادها هذه اللغة مؤكدا بأنه عندما عزم على تعلم التارقية أخبر بأنها من مهام المرأة في المجتمع التارقي المتميز ، (Devreyuer,1864,p٣٨٨) ، فتعمق (دوفرييه) في دراسة اللغة التارقية بعد أن جالس ناطقيها وعايشهم، وتماها مع عاداتهم وتقاليدهم فوفق على أنها لغة تعليمها من شأن المرأة، وتتميز بحروف التيفيناغ أو التماشق، وهي لغة صمدت عبر الأزمان للدور الفاعل للمرأة في توريثها لأبنائها، إنها لغة الأم صانتها ونقلتها عبر الأجيال.

يشير دوفيرييه إلى أن حروف التيفيناغ تكتب بشكل عمودي أو افقي حسب رغبة الكاتب من اليمين إلى اليسار هي الطريقة الأكثر اعتمادا ،(Devreyuer,1864,p٣٨٩) وهو تأكيد على تحكمه في خصوصية اللغة التارقية ، فهي لغة حسبه تكتب عموديا أو أفقيا بحسب رغبة الكاتب، بل وكذلك من اليمين إلى اليسار، فهي لغة مطواعة بها سر كبير في حروفها وفي اتجاه كتابتها ولولا مجالسته لهم لما استطاع الوقوف على خصوصيتها.

فالتفيناغ هي الحروف التارقية التي يكتب بها التوارق لغتهم، ونجد هذه الكتابات في مغارات جبال الأكاكوس وتاسيلي والهقار، وجبال وتحتوي هذه الأبجدية على اثنين وعشرين حرفا ولهذا يضطر التوارق لتركيب حرفين لإعطائهم حرفا آخر غير موجود في أبجديتهم، وتلتقي حروفهم مع الحرف الحميري القديم المسند في كثير من الحروف، مثل(ل)(ا) وال(ش)و(التاء)(+)حيث لا تزال مستعملة في الكتابة الأريتيرية حتى الآن كما أن الدال (د) هو نفس الدال العربي،(القشاط، ١٩٩٥، ص٣٣-٣٤)، حروف التفيناغ حروف عريقة متناثرة على الكهوف والصخور، تمثل رموز اللغة التارقية.

كما أن حروف التفيناغ تكتب من اليمين إلى اليسار في العادة ، أما إذا أراد التارقي أن يكتب عن موضوع مهم يخشى أن يقع في أيدي أعدائه فإنه في هذه الحالة يضطر للكتابة في كل الاتجاهات، من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، ومن فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق، وهنا يستغرق فك الرسالة وتفكيك رموزها أيام(القشاط، ١٩٩٥،ص٣٤)، فالتفيناغ مرنة في كتابتها ويستعملها التارقي بذكاء بحسب أهمية ما يكتب، وبحسب الموضوع ومن يوجه إليه.

دوفرييه باعتماده على امنوكال ايخنوكن والشيخ عثمان وجد حسن الاستقبال من التوارق فاندمج فيهم، بحيث كانوا يعتبرونه كما لوكان واحدا منهم، فكان يحضر الاجتماعات التي يتناقشون فيها في أمور القبيلة، كما تعلم لغة تماشق وحروفها الهجائية (تيفيناغ) التي لم يكن يعرفها سوى عدد صغير من التوارق انفسهم، وكذلك كان يرافق القبيلة التي نزل عندها أشهرا طويلة في تنقلها وترحالها، ووهو في كل ذلك يتعلم ويسجل ملاحظاته(العربي، ١٩٨٣،ص٨٦)، فقد فتح له التوارق قلوبهم فأصبح جليسهم فتعلم لغتهم وسجل عاداتهم وتقاليدهم، وخبر مجتمعهم، فدون مآثرهم، وثقافتهم، وجغرافية منطقتهم، إنه استغل الشيخ عثمان، وامنوكال ايخنوكن في السير قدما في الاندماج في المجتمع ، فحضر نقاشاتهم، ومجالس كبرائهم، فعدوه فردا منهم، وهو ما يسر مهمته.

السحر وطقوسه في مجتمع الأهقار عند دوفرييه

يورد (هنري فيرييه) بأن الإيمان بالقوى الخفية سلوك مسيطر على مجتمع الأهقار فالمجتمع يخشى هذه القوى الخفية وسكان الصحراء الجزائرية عموما يخشون قوى الجن، فلا يوجد حسب قوله في إفريقيا فرد مستنير أو جاهل متعلم أو أمي لا يرد إلى الجن كل غريب يحدث فوق الأرض دون تفسير(Devreyuer,1864,p٤١٥) ، وهذه تجليات خصوصية المجتمع التارقي الذي استكشفه دوفرييه، فهو إيمان بالأساطير التي ينسجون عليها قصصهم وحكاياتهم، ويرصعون بها تاريخهم، فكل غريب وكل ما صعب تفسيره يرد إلى قوى خفية غيبية تتحكم فيه يخشاها الفرد التارقي حتى غدت من إحدى مسلماته الحياتية.

إن الخوف من القوى الخفية حسب هنري دفيرييه لازال يؤثر في سلوكات الفرد والمجتمع بالأهقار فيتصرفون تصرفات متصلة بهذا الاعتقاد حيث يورد بأن التارقي لا ينام تحت سقف أبدا خوفا من أن يبقى محبوسا من طرف (الهاينن) أي الجن ،(Devreyuer,1864,p٤١٩) فظلت القوى الخفية حسب دوفرييه تقيد حركة الأفراد خوفا من الجن القوى الخفية حسبه، وهي من بين القوى التي يخشى الفرد التارقي النوم وحده لكي لا تسجنه وهذا لا وعي جمعي يشترك فالصورة التي صنعها الفرد التارقي عن القوى الخفية المسيطرة على حياته وعلى تقلبات حركتها وعلى ما غمض فيها وما التبس من مصائر أفرادها وتحول حياتهم.

يوكد هنري دفيرييه بأن هذه القوى الخفية تشكل الخطر الداهم في مخيلة الفرد والمجتمع في الأهقار فيلجأ الأفراد الذين تنتابهم هذه إلى حماية أنفسهم وأفراد عائلاتهم ببعض الوصفات السحرية والتي يعلقون بها كل ثقتهم متشبثين بقدرتها على دفع الضرر وإبعاد الخطر وجلب الحظ السعيد، فالتوارق حسب ديفيرييه يؤمنون بالسحر والسحرة ويثقون يقينا في قدرتهم على تحويل الانسان إلى حيوان ، فهذه المخاوف وما يتصل بها من خرافات أصبح الحرز يلعب دورا مهما في حماية التارقي من كل ما يواجهه من خطر أو يهدده من ضرر، وهو ما جعل التارقي يوصف بالمتطير، فافراد المجتمع الأهقاري يتطيرون، ويخافون من أشياء كثيرة لذلك تمتلئ رؤوسهم وأعناقهم وصدورهم بالتمائم، وهي تمائم تتكون من كيس من الجلد مزخرف تعلق في سير جلدي به عقد، وهناك نوعان من التمائم تمائم تمنح حاملها كل الخير الذي يطلبه وأخرى تبعد عن حاملها كل خطر أو شر يتوقاه ، Devreyuer,1864,p٤١٩)) حديث دوفرييه عن المجتمع التارقي بهذه الدقة يشير إلى فهمه العميق لخصوصية هذا المجتمع، فمخيال الفرد التارقي ملئ بهاجس الخوف من الجن ومن القوى الخفية، وهو ما جعل أفراد المجتمع يسلمون بطقوس السحرة رجاء أن تحميهم من القوى الخفية، فينقل دوفرييه إيمانهم العميق بقدرة السحرة فهم حصنهم أمام القوى الخفية فلا يمكن أن تنازع تارقي عن عدم إمكانية الساحر تحويل الإنسان إلى حيوان إنها عقيدة بل تسليم بقوة السحرة، فارتبطة الأسطورة بالخرافات وعلقت اعتقادات بأذهان أفراد المجتمع التارقي فدب الخوف ولا مناص من مواجهته ما لم بالتمائم، فهي في لا وعي الانسان التارقي جالبة للخير صارفة للشر؛ لذلك يثقل الانسان التارقي ذراعه ورقبته بالتمائم وهي أكياس صغيرة من الجلد تعلق رجاء التحصين في الثقافة الشعبية التارقية والعادات التي درج عليها المجتمع، فنشأت مرتبطة بأساطير تشكلت في اللاوعي الجمعي للمجتمع.

كما أن التوارق يغلفون القبور بكثير من الأساطير المماثلة فيعتقدون بأن الجن والعفاريت تسكنها، ويزعمون أن شخصا مر بجانب القبور، فسمع أحاديث يتداولها الجن مع أصحاب القبور، وآخر شاهد مخلوقات مجنحة تقف على أحد القبور، ويقولون إنها ملائكة تترحم على صاحب القبر ، كمل يزعمون أن قبورا لآشخاص مشهورين شاهدوا نورا يسطع عليها ليلا(القشاط، ١٩٩٥،ص ١٠٢)، وهذا دليل على تجذر الأساطير في حياة أفراد المجتمع التارقي، فيفسرون بها الظواهر الغريبة، ويربطون بها الكثير من الظواهر غير المألوفة.

كما يورد هنري دفير بيه بأن المجتمع التارقي يتميز بنوع من الطقوس يدعى بالاستحياء وهو من الطقوس التي يستدعى فيها التوارق الأرواح لمعرفة الغيب وهو من الطقوس التي تعتمدها النسوة في المجتمع التارقي الأهقاري وذلك يعود إلى كثرة سفر الطوارق سواء من أجل التجارة أو الغزوات لمدة قد تطول وفي فترة غيابهم الطويل تنقطع أخبارهم، فتشتاق عائلاتهم لرؤيتهم فتعمد النسوة إلى استدعاء من اشتقتن إليهم فيتزين بأحسن ما لديهن من لباس وحلي ومجوهرات ويذهبن إلى المقبرة يتمددن فوق قبور الأجداد، ويستحضرن روح من تأتي لهن بالأخبار والاستجابة لندائهن (ادبني) تتمثل لهن روح في شكل إنسان، فإذا اعجبت إدبني بالمستحضرة، يقص عليها ما حدث في الرحلة، أما إذا حدث العكس، فتعمد تلك الروح إلى خنق المرأة ، لأن النسوة يعرفن جيدا شروط إدبني فإنهن في كثير من الأحيان يأتيين بأخبار يقال أنها تتوافق مع الحقائق التى مر بها المسافرون ويؤكدها عند عودتهم ،(Devreyuer,1864,p٤١٥) فهذا جانب من خصوصيات الثقافة الشعبية التارقية حيث استدعاء الأرواح واستحضار أخبار من غابوا وانقطعت أخبارهم، إنه (إدبني) حيث تتمثل الأرواح في صورة إنسان إذا تناغمت مع المستحضرة فتقص أخبار من فقد وإذا لم تتفاعل مع روح المستحضرة خنقتها، إنه إغراق من دوفرييه في نقل الثقافة الشعبية للمجتمع التارقي مؤكدا بذلك استكشافه العميق للمجتمع في عمق الصحراء الجزائرية، ووقوفه على دقائقه.

اللثام التارقي عند دوفرييه :

من مميزات زي الإنسان التارقي هو اللثام الذي يطلق عليه" التوارق تيقلموست " وهو عمامة توضع بشكل خاص حسب طول وعرض معينين واللثام في العادة يلبسه الرجال الأغنياء والنبلاء، فهو مقدس عندهم ، فالتارقي لا يسمح لأي أحد أن يرى وجهه حتى أهله وأقرب الأصدقاء، ويظل اللثام على وجهه طول النهار والليل، وربما عند النوم وأثناء الطعام يكشف الملثم على فمه لتناول الأكل، منهم من يرفع اللثام ويضع الطعام ثم يمضغ وربما أخذو جانبا بعيدا عن الناس حتى لا يراهم أحد ، فاللثام حين يوضع يغطي الرأس والجبهة والرقبة والعنق والوجه ، وهو قطعة قماش طويلة ملونة مطروزة من جهة وتوضع بحيث لا يمكن رؤية إلا العين التي بدورها تكون مغطاة بطرف هذه القطعة ،(Devreyuer,1864,p٤٠٦)، فهي وقفة على لباس الانسان التارقي وإحدى مميزاته وهو اللثام أو (تيقلموست) إنه عمامة التارقي وعلامة الإنسان الأزرق، إنه رمز الرجولة حيث يحمل قداسة ففي عرف التارقي ملازمة اللثام لرأسه ووجهه ليلا ونهارا، فلا يرى وجهه ولا رأسه طيلة اليوم والليلة، إنها عادة ربطت بعرف أصبح ملازم للفرد التارقي يعرف به، ويشار إليه بالبنان.

يورد ابن خلدون عن الملثمين حديثا يؤرخ لنسبهم فهم" الملثمون المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية، بالجنوب أبعدو في المجالات هناك منذ دهور ما قبل الفتح لا يعرف أولها فأصحروا عن الأرياف ، ووجدو بها المراد، وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها، انتباذا عن العمران واستئناسا، بالانفراد وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد السودان حجزا واتخذوا اللثام خطاما، تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة ولمتونة، فمسوفه، فوتريكه، فناوكا، فزغاوه، ثم لمطه، أخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبيلة طرابلس وبرقة"(ابن خلدون، د ت،ص٣٧٠-٣٧١)، إنهم الملثمون شعب متميز به ويعتبر اللثام شعارا، يأنسون للبعد عن التسلط والقهر، ويأبون الأسر ويعشقون التحرر من ربقة الاتباع وترك العنان للسباحة في فضاء الصحراء الساحر، ورمالها الذهبية ومظاهرها الخلابة.

القصيدة النشيد الوطني التارقي عند دوفرييه:

يورد هنري دفيرييه قصيدة وسمها بأنها النشيد الوطني للتوارق يقول فيها الشاعر : (Devreyuer,1864,p٤٥١)

لعنة الله على أمك معطي الله إبليس يسكن جسدك/ هؤلاء الرجال التوارق أو تعتقد بأنهم جبناء، إنهم أعرف الناس بالسفر وبالقتال، يعرفون الرحيل عند الصباح باكرا و السير في المساء، يعرفون كيف يباغتون أي رجل وهو على سريره نائم، خاصة ذلك

الغني الذي ينام على ركبتيه وسط قصعة، ذلك الذي يزهو ببسط خيمته الواسعة، ذلك الذي يفترش زرابية كلها وينام، وبالزبدة المذوبة والحليب الساخن الخارج من ضروع النوق، يحزون جسده برماحهم الحادة كشكوة، فيطلق صرخاته على أن تحلق روحه، نجرده من أمواله دون أن نترك له قطرة ماء، وزوجته البطرة لن تتحمل خيبته، هنري دوفريير ينقل لنا شعار الانسان التارقي الدال على نبله وشجاعته ومواجهته للأهوال في أرضه الفسيحة، وأرجائها السحيقة الضاربة في القدم، ولغته الثرية، وعاداته وتقاليده العريقة، وثقافته الشعبية العميقة، إنها فضاء يستحق من لا يخشى الفناء، إنه التارقي من يجوب الفيافي ويقارع الخطوب.

خاتمة : ويبقى أن هنري دوفيرييه استطاع التوغل في مجتمع التوارق وسبر أغوار عاداته وتقاليده ولغته وثقافته فأبدى إعجابه بمجتمع الأهقار لكن جهده يدخل في خانة تمهيد الطريق أمام المستعمر لإيجاد سبيل التوغل في ثقافة هذا المجتمع و السيطرة عليه انطلاقا من توظيف الزوايا وتوظيف اعتقادات أفراد المجتمع بزعمائها لحث المجتمع الأهقاري على الاندماج مع ثقافة الوافد والتماهي معها وعدم معاداتها وهو ما ذهب إليه المستكشفون بعيدا في توغلهم في جميع خصائص المجتمع وتعلم لغته ومجالسة أهله والاندماج في عاداتهم وتقاليدهم وتقريب مقدمي طرقهم وإجزال العطايا لمريديهم لكن مع ذلك ظل هذا المجتمع راسخا بعاداته شامخا بتقاليده ، وهو ما يفتح المجال للتساؤل أمام سر هذا الصمود والتشبث بميراث الأجداد على الرغم من استهداف المكونات وتوظيفها لإخضاع هذا المجتمع، والنيل من خصوصيته .

دوفرييه أصبح دليل مستكشفي الصحراء بفضل دراساته وأبحاثه فكل مستكشف للصحراء عليه أن يأخذ توصية من دوفرييه لأصدقائه من التوارق ليسهلوا مهمتهم الاستكشافية، فلا يستغني المستكشفون الأجانب عن خدماته، ومشورته، بل هو الذي قدم إلى الجمعية الجغرافية النتائج التي توصل إليها المبشر دوفوكول المستكشف لصحراء المغرب، وهو الذي استرشد به المستكشف النمساوي أوسكار لانز الذي كلفته الجمعية الافريقية الألمانية باستكشاف أطلس المغرب الأقصى.

قائمة المراجع

- بوشوارب، عبد السلام، الحقّار، أحمد، وأونجاد. (١٩٩٥). المتحف الوطني للمجاهد. الجزائر (National Museum of the Mujahid).
- دوفيرييه، هنري. (١٨٦٤). استكشاف الصحراء: الطوارق الشماليون. باريس.(Librairie Hachette) :
- فوكون، ن. (١٨٨٩). حياة الجزائري. باريس.(Librairie Hachette) :
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت.). تاريخ ابن خلدون (المجلد ٦). بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- إسماعيل، عبد العزيز. (١٩٨٣). الصحراء الكبرى وسواحلها. الجزائر / (National Book Foundation :المؤسسة الوطنية للكتاب.(
- شخوم، صالح ولد الرشيد. (٢٠١٢). وادي ريغ في كتب المستشرق هنري دوفيرييه (١٨٤٠–١٨٩٢): نموذج لدراسة نقدية. في أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في جنوب الجزائر خلال القرنين ١٢–١٣هـ / ١٨–١٩م من خلال المصادر المحلية (ص. ٤٥–٦٧). الجزائر: مطبعة منصور، المركز الجامعي بالوادي.
- فابيرو، غوستاف. (١٨٧٠). المعجم العالمي للمعاصرين: متضمّنًا مشاهير فرنسا والبلدان الأجنبية (الطبعة الرابعة). باريس : (Librairie Hachette).
- برنار، أ. (محرر). (١٨٩٦). بعثتان فرنسيتان لدى الطوارق (١٨٨٠–١٨٨١). باريس.(Jourdan) :